مجلة جامعة الملك سعود، م٣، الآداب (٢)، ص ص ٣٨٣ ـ ٤٠٩ (١٤١١هـ/١٩٩١م).

الجارة في الشعر العربي القديم

مرزوق بن صنيتان بن تنباك

أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية

(ورد بتاريخ ١٤٠٩/٧/١٢هـ، وقُبِلَ للنشر بتاريخ ١٤١٠/٥/٧هـ)

ملخص البحث. يدرس هذا البحث حق الجارة في الشعر العربي القديم، ويصف فخر الشعراء العرب عندما يقومون بحماية الجارة ورعايتها. وليس هذا فحسب بل إن الشعراء عبَّروا في قصائدهم عن القيمة الاجتماعية لهذا العرف وعن قوانين الجوار المرعية.

وقد تابعت هذه الدراسة تطور علاقات الجوار وأسبابه وأوردت الشواهد الشعرية التي تناولت ذلك العرف بشيء من التفصيل.

مقدمـــة

هدف هذا البحث هو تتبـع خطوات أفئـدة الشعـراء الأقدمين عندما يمرون بذكر عادة اجتماعية أصَّلها العرفُ العربي في الجاهلية وحثَّ الإسلام على التمسك بها وزادها تمكينًا في الـواقـع الاجتماعي وهي حق الجارة والنظرة إليها. وقد رسم الشعراء صورة متميزة هي الحديث عن النفس والفخر بمعاملة الجارة معاملة تتفق مع أخلاقهم وعاداتهم وتَصورِهم لسنن المروءة وهذا البعد الذي رسمه الشعراء أملته طبيعة الإنسان الشاعر ففخر بنفسه أو مدح غيره.

كما يعـرض البحث الشعر الذي وصف خلجات فؤاد الشاعر عندما يتحدث عن الجارة ويصف حقها وما يجب لها من الرعاية. وقد كان المتوقع أن يكون لها في الشعر القديم حظ أوفر مما وجد في حقيقة الأمر، حيث ظهر كمٌّ قليل من الشعر تناول حق الجارة في فترة طويلة وخصبة، مارس فيها العرب عاداتهم الاجتماعية بعيدًا عن المؤثرات الخارجية التي حدثت بعد ذلك والتحولات الاجتماعية التي حددت علاقة الجوار فاختلف حالها عما سبقها من أحوال.

وبعد حصر الشعر انتقل النظر من الكمِّ إلى المضمون، فظهرت الصورة التي رسمها الشعر أوضح ما تكون عندما يطرق الشاعر باب الثناء على النفس والفخر بالمحافظة على خصال المروءة وما يتطلبه الوفاء بالواجب، فوصف محافظته على الأخلاق الاجتماعية، ومدح من أراد مدحه بهذه المحافظة وهجاء من أراد هجاءه بالتخلي عنها.

وأيما كان الشعر الذي تناول حق الجارة فخرًا بالنفس أو مدحًا للآخرين أو هجاء لهم. فقد كان تعبيرًا لاقتناعات العرب بقيمة علاقة الجار واحترام حقه وهو حق محدود المعنى ينحصر بالحماية التامة للجار والإكرام له ولهذا السبب بدأت نصوص الشعر أمام الفحص والنظر أقرب ما تكون إلى تقرير الواقع الاجتماعي المتفق عليه الذي يعد العرب احترامه، والإيمان به والمحافظة عليه من مسلمات الأعراف المُرْضِية والتقاليد المحمودة في مجتمعهم، وأظن أن هذا هو السبب الذي جعل الشاعر لايحتاج إلى الغوص في الأحاسيس ولايشرح المشـاعر ولايتخيل صورًا لرسم عواطف الناس، ثم لايحتاج إلى جهد غير عادي لإقناع السامعين بأهمية ما يتحدث عنه أو يدعو إليه، فإكرام الجار واحترامه وحمايته بدهيات لدى الناس كافة. فاكتفى بذكر ما يفعل هو عندما يكون له جار، أو عندما يمدح أحدًا بذلك. وقـد رأى البـاحث أن يجعـل هذا البحث عرضًا للصورة التي يؤمن العربي بها نحو هذه العادات الكريمة كما وردت في شعرهم وأن يجمع ما خص حق الجار في بحث يضعه أمام القـراء ولم يكن من أهداف البحث التدخل في فلسفة العادات الاجتماعية حتى لايخرج الحديث إلى أشياء لايستطيع الباحث أن يورد الدليل من الشعر عليها. وإنما أراد عرض آراء الشعراء كما نص عليها الشعر ووصف الخطرات النفسية وربط سياق الشعر بالظواهر

الاجتماعية وبسياق التطور التاريخي وحسبه ذلك حتى لايدفع حب الإكثار من ترديد النصوص والآراء والنقولات إلى ضرب من التحمل أو سوء التفسير. كما أن هذا البحث هو واحد من سلسلة بحوث سيجمعها إطار عام يعطي لها صورة كاملة غير مجزأة. وستسبقها مجتمعة مقدمة طويلة تتناول فلسفة العادات الاجتماعية عند العرب وتعلل بواعث الالتزام بها والاستمرار عليها.

لقد كانت الوحدة الاجتماعية والسياسية الظاهرة على أرض الجزيرة في الجاهلية هي القبيلة، وكانت تشكل في تكوينها مجموعات بشرية مستقلاً بعضها عن بعض. يقوم هذا الاستقلال على أساس أن كل قبيلة تنتمي إلى جدٍّ أعلى يربط بينها بوشائج النسب، فتعد القبيلة أن كل من لم يشاركها النسب هو أجنبي عنها بعيد منها.

وقد أصبح لكل قبيلة أرض تقيم فيها وتحافظ عليها وتحميها ولاتسمح أن يعيش معها أحد من غير أبنائها إلا بإذنها ورغبتها على الرغم من أن الجزيرة العربية مفتوحة والاتصال أمر لابد منه لتشكيل البنية الاجتماعية والاقتصادية لسكانها. وكان لابد من قيام نوع من الاتصال ونشوء علاقة بين الناس، وقد شعرت القبائل العربية في جاهليتها بأهمية التقارب والاتصال وتقوية العلاقات الاجتماعية فأقامت الأسواق التجارية، واجتمعت فيها، وأوجدت الأشهر الحرم ومنعت فيها القتال لكي يسمح ذلك بشيء من الاستقرار. وهو إرهاص سبق الإسلام وآذن به وكسر الحواجز القائمة، وفتح الدوائر المغلقة بين القبائل المختلفة.

وقد كان الجوار أقوى تلك المظاهر التي جعلت الاتصال قويَّ الدلالة في مجتمع الجزيرة، فاعترف العرب به وصار تقليدًا اجتماعيًّا محترمًا بينهم، ونشأت له أسس وأعراف ملزمة، ونمت منه علاقات قوية، وفتحت خلاله سبل الالتقاء المباشر المنظم المعترف به. وعندما جاء الإسلام كان الجوار أقوى صور الاتصال المباشر بينهم.

الجـوار لغـة

لابد من تعريف موجز للجوار عند العرب ومكانته عندهم وما يتعلق به من حقوق وواجبات، وسيكون التعريف مختصرًا الاختصار كله لأنني فصلت الحديث عن قيمة الجوار ومضامينه الاجتماعية في بحث سيأتي الحديث عنه.

جاء في *تهذيب اللغـة* (مـادة ج و ر) الجـار الذي يجاورك، وجاور بني فلان تحرم بجوارهم، والجار الحليف والناصر، والجار الجنب ألا يكون له مناسبًا فيجيء إليه ويسأله أن يجيره. وجاء مثله في *كتاب الجيم* وفي *لسان العرب*.

من هذا العرض يظهر أن معنى الجوار هو الحماية والنصر من القوى القادر للضعيف والغـريب ومن لاتجب حمايته بغير سبب الجوار. والحماية تعد تعبيرًا عن قوة المجير وقدرته وسيادته في قبيلته واحترامه في حيه. بينما تعد حاجة المستجير إلى الحماية وانضواؤه تحت كنف القوة دليلاً على ضعفه وتنازله عن حقه في الدفاع عن نفسه إلى من استجار به. وبهذا المعنى يكون طرفا القضية.

أولاً المجير: الذي يطلب الضعيف أو الغريب حمايته.

ثانيًا المستجير: الذي يطلب الحماية ويرغب في إضفاء الجوار عليه.

والعامل لدى طرفي المعادلة عامل معنوي وذاتي، فالمجير إذا أعلن جواره لأحد يكون قد أعلن قدرته على الحماية وتحديه لكل من يمس الجار بسوء ويصبح الاعتداء على المستجير تحديًا للمجير نفسه. وعن الجوار تنشأ علاقات إنسانية قوية بقي من مدلولاتها الاجتماعية ما سجله الشعراء في الماضي.[1]

(١) مرزوق بن صنيتـان بن تنبـاك، «الجوار في الشعر العربي حتى العصر الأموي،» حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الرسالة السبعون، ١٤١٠ ـ ١٤١١هـ (١٩٨٩ ـ ١٩٩٠م).

أما بعد الإسلام فقد تطور مفهوم الجوار ولم يعد من الضرورة أن تكون الحماية أهم عناصره وإن أقر الإسلام الحماية فقد جعلها حالة خاصة تحث على إكرام الجار وتجعل ذلك من كمال الخلق ورسَّخ الإيمان بمضمونه الاجتماعي دون المضمون السياسي الذي أصبح من حق الدولة الإسلامية. وقد نصت وثيقة المدينة في عهد الرسول ﷺ على حقوق الجار ونظمتها وجعلت الجار كالنفس غير مضار[٢] ونزل القرآن الكريم يذكر الجوار وحقوقه ويفصل ذلك[٣] بل كاد الإسلام أن يجعل حق الجوار كحق قرابة النسب فجاء الأثر المعروف «مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه.»[٤] وقد استقصيت ذلك كله في بحث «الجوار في الشعر العربي القديم.»[٥]

الجـــارة

أمـا الجـارة وهي موضوع هذا البحث خاصة فإن العرب في جاهليتهم نظروا إلى حرمتها نظرة لاتنفصل عن النظر العام لحقوق الجوار. والمرأة الجارة تكون في كنف القوم أضعف مستجير وأقل ناصر لذلك اهتموا بحمايتها وصون كرامتها، ومدحوا من يحافظ عليها ويرعى حق جوارها، وقد شهد شعرهم في هذا المجال بما يعدونه من كمال المروءة. وعندما جاء الإسلام مدَّ العمل بمكارم الأخلاق وحث على فضائل الأعمال، وعظم حق الجوار عامة وحق الجارة خاصة. فصار صون عفة الجارة خلقًا دينيًّا وسلوكًا اجتماعيًّا محمودًا وجاءت آثـار وأحـاديث تحث عليه وتجعل الاهتمام بالجارة والمحافظة عليها منطلقًا اجتماعيًّا ودينيًّا مقدسًا، فاتفقت تقاليدهم في الجاهلية مع روح الإسلام.

---

(٢) ابن هشام، *السيرة النبوية* (بيروت: دار الجيل، ١٩٧٥م)، مج٢، ص١٠٨.

(٣) جاء في القرآن الكريم عدد من الآيات في سور مختلفة تذكر حق الجار منها: سورة الأنفال، الاية ٣٦، ٤٨؛ سورة التوبة، الآية ٦؛ سورة الأحزاب، الآية ٦٠؛ سورة المؤمنون، الآية ٨٨؛ سورة الجن، الآية ٢٢.

(٤) الإمام الحافظ الذهبي، حق *الجار*، تحقيق هشام السقا (الرياض: دار عالم الكتب، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)، ص٢٢.

(٥) ابن تنباك، «الجوار.»

وقد تتبع البحث دواوين الشعر الجاهلي وصدر الإسلام وعصر بني أمية وأحصى ما ورد فيها عن هذا الموضوع، فكانت حصيلته من الشعر قليلة. كما وجد أن لبعض الشعراء اهتمامًا متميزًا أكثر من اهتمام غيرهم من الشعراء، فحاتم الطائي مثلاً خص الجوار بشيء غير قليل من شعره في حين أننا نجد شعراء غيره قلَّ عندهم الحديث عن الجار ولم يذكروه إلاَّ عرضًا متعلقًا بموضوع آخر، ونوع ثالث خلا شعرهم من ذكر الجوار بتاتًا.

لكن ما وصل من الشعر على قلته يبين مفهوم العرب للجوار وحقوقه عندهم ومدى فخرهم به وذكرهم للوفاء بما يلتزمونه من تقاليد عربية وهو أمر متفق عليه وإن قلَّ ذكره عند شاعر من الشعراء وكثر عند آخر فإن الاقتناع به عام لديهم.

وعندما تناولتُ الجوار عند العرب ومضمونه في الشعر، كنتُ أنظر إلى دلالته الاجتماعية بنظرة تفحص بواعث هذا الخُلُق ودوافع الاهتمام به عندهم، وأسباب حفاظهم على حقوق الجار وواجباته واقتناعاتهم بذلك وما يتطلبه لازم الجوار من عناية خاصة.

وكانت حماية الجار هي أبرز ما ظهر في الشعر الذي تحدث عن حقوق الجوار وواجباته ووصف الدفاع عن الجار إذا نزل في كنف القوم وجعل ذلك دليلاً على مروءة العربي ورفيع مكانته في الناس. وكنت أنظر إلى الجوار من هذا المنطلق. لكن عندما جمعت ما تيسر من مادة وعدت لتصنيفها ظهر أمامي ما لفت نظري وهو تميز الحديث عن الجارة إذا ظهرت فيه روح خاصة ونغمة متميزة وشعور ملح جعلني أعيد القراءة مرة أخرى لما بين يدي من الأبيات فوجدت أن نصيبها شيء لايستهان بمضمونه على الرغم من قلة مادته، عندئذ عزمت أن أجعل ما تناول حق الجارة خاصة من الشعر بحثًا منفصلاً وإن قلَّ. والسبب الذي دفعني إلى ذلك هو خصوصية المعنى الذاتي الكريم الذي أستشعره، وأنا أتابع ما قال الشعراء فأجد أن في قولهم دلالة اجتماعية إنسانية، وأنهم عندما يتحدثون عن حرمة الجوار عامة لاينسون الخصوصيات في هذا العموم، ولاسيما المرأة الجارة التي تحظى بشيء غير قليل من الزخم النفسي الذي يصف أخلاقهم وكمال عاداتهم وأصالة تقاليدهم.

ولا أجد فيما أنا بصدد الكلام عنه أجمع لعادات العرب في جاهليتها وإسلامها، ولا أصدق على صفاء أخلاقها ومروءتها وقربها من الفطرة والكمال من حديث رسول الله ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق.»[٦] وهو دليل على أن مكارم الأخلاق عند العرب في جاهليتهم كانت على وَشْكِ الكمال والتمام ولايشوبها غير الشرك بالله وعبادة الأصنام فجاء الإسلام بالتوحيد فطهرهم وكملت أخلاقهم وكرمت طباعهم. وهذا سيقود إلى شرح لبعض مكارم الأخلاق التي كانت عندهم في جاهليتهم وكانوا يرعونها ويحافظون عليها، ثم جاء الإسلام فزاد الأخلاق الكريمة تمكينًا ورسوخًا في عقائد العرب المسلمين مثلما كانت قوية راسخة وحية مشرقة عند العرب الجاهليين.

ولا شك أن المعنى الذي دار حوله الشعر هنا نموذج قليل ومثال للتدليل على ما يريد العربي أن تكون عليه أخلاقه وهو شاهد على قيمة الأخلاق التي يؤمن بها أشد الإيمان، ولايتنازل عن شيء منها فيما يواجه من تغيرات الحياة وصروف الدهر؛ لذلك كان في شعره مهاجمًا عنيفًا لكل ضعف يطرأ على سلوك المرء نحو اهتزاز العقيدة الراسخة بحق الجارة وحرمتها ووجوب الوفاء لها حتى لو جاع هو ومن حوله من أهله فإنه يحاول ألاَّ تجوع جارته وهي بكنفه.

أما في هذا البحث الذي سيتناول المرأة الجارة خاصة ويتناول حقها عندما تكون جارة لحي من العرب، والواجب نحوها فيما قبل الإسلام، فقد تركز في محاور دارت كلها حول صونها وكرامتها وعفتها وأنها حصان لايهتك لها ستر ولا يجرؤ على ذلك أحد، وعندما جاء الإسلام أكد القيم التي عرفتها العرب وعظمها وزاد عليها. فنصت تعاليمه السمحة على تحريم جميع المفاسد الاجتماعية على الناس، ومنها الزنا بكل صوره وأشكاله. ولكنها مع التشدد في تحريمه ضاعفت عقوبة الزنا في حال خاصة وهي أن يزني الرجل بحليلة جاره. جاء في الحديث الشريف[٧] «لأَن يزني الرجل منكم بعشر نسوة خير له من أن يزني بحليلة

(٦) أحمد بن حنبل، *المسند* (دمشق: المكتب الإسلامي، د. ت.)، مج١، ص٧٨١.

(٧) طه عبدالله العفيفي، *حق الجار*، ط١ (القاهرة: دار الاعتصام، د. ت.)، ص١٤؛ وانظر: الذهبي، *حق الجار*، ص٢٨.

جاره.» وهو الأمر الذي كانت تحرمه العرب في الجاهلية وتعظمه، وقد ورد شعرهم يحكي سموهم عن الجارة وابتعادهم عنها وتعظيم حرمتها حيث ينسب للأعشى قوله:(٨)

وَلَا تَقْـرَبَـنَّ جَارَةً إِنَّ سِرَّهَـا عَلَيْكَ حَرَامٌ فَانْـكَـحَـنْ أَوْ تَأَبَّـدَا

ويقول في موضع آخر من ديوانه:(٩)

وَجَـارَةُ جَنْبِ البَيْتِ لَاتَبْـغِ سِرَّهَـا فَإِنَّـكَ لَاتَخْـفَـى على الـلَّهِ خَافِـيَا

فهذا رأيه فيما يتعلق بحق الجارة، على الرغم مما عرف عنه من غرام بهذا الجانب حتى ساقت الروايات أحاديث مفادها أنه أراد أن يفد على الرسول ﷺ ويسلم فلما عرفت قريش ذلك حاولت صده حتى لايكون شعره مناصرًا للدعوة الجديدة، ولم تجد ما تصده به عن محمد ﷺ إلَّا أن دينه يحرم الزنا والخمر. وقد روت الروايات والقصص أن ذلك كان سبب عودته وردته عن الوفادة.(١٠) وشاهِدنا فيما سقنا هنا هو أنه حتى مع تأصل هذا الخلق في نفسه وما شهر به طبعه فإنه ينشد الشعر معظمًا في عرفه الاجتماعي خطيئة ما يرتكب من الزنا إذا كان ذلك بحليلة الجار وينهى عنه ويأمر بالابتعاد منه إكرامًا لحقها واعترافًا بحرمتها وشعورًا بواجب الرعاية التامة لها، وبيان دلالة الالتزام نحوها، وهو شعور يعد جانبًا من المروءة التي يتصف العربي بها وسنعرض من الشعر ما يحمل دلالات اجتماعية راقية تبعد بأخلاق الإنسان حتى عن وساوس النفس الأمارة بالسوء وعن مجرى الشك ولو كان بين الإنسان ونفسه وتحث على سلوك إنساني رفيع ومعنى كريم وخلق يستحق المعالجة. فقد مرَّ مالك بن أنس فقيه المدينة بقينة تغني شعرًا تقول فيه:

أَنْـتِ أُخْـتِي وَأَنْـتِ حُرْمَـةُ جَارِي وَحَـقِـيْقٌ عَلَيَّ حِفْظُ الجِـوَارِ

إِنَّ لِلجَـارِ إِنْ تَغَـيَّبَ غَيْبًـا حَافِـظًا لِلْمَـغِـيْبِ وَالأَسْرَارِ

---

(٨) ميمون بن قيس الأعشى، *ديوان الأعشى* (بيروت: دار صادر، د.ت.)، ص٤٦.

(٩) الأعشى، *ديوان*، ص٣٨١.

(١٠) أبو الفرج الأصفهاني، *كتاب الأغاني*، ط٤ (بيروت: دار الثقافة، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)، مج٩، ص١٢٢.

مَا أَبَـالِي أَكَـانَ لِلْبَـابِ سِتْرٌ مُسْـبَـلٌ أَمْ بَقِـي بِغَـيْرِ سِتَـارِ

فوقف يستمع إليها ثم قال: «علموا أهليكم هذا ونحوه.»(١١)

الجـارة الحصـان

الحديث عن حقوق الجار في أغلب ما بين أيدينا من الشعر هو في الحقيقة حديث عن النفس وليس حديثًا عن الجار لأن الشاعر يذكر عزة جاره في سياق فخره بنفسه والتزامه بالمروءة وتحديه لأحد أن يخفر ذمته أو يهين جواره وقد سبق التعريف بأن الغرض من طلب الجوار هو الحماية، ومادام الجار يحتاج الحماية فإن الحامي يجب أن يكون قويًّا وشجاعًا وذا هيبة في قومه حتى يحقق الحماية لجاره ثم يكون كريمًا معطاءً وذا مروءة والتزام أخلاقي رفيع وهذه الصفات هي المفخرة له يذكرها في شعره وينشرها بين الناس، ويكون الحديث عن الجار وصفًا لموقف ذاتي عن الشاعر نفسه أو عن قومه.

أما حق الجارة وهو جزء من القيمة الاجتماعية التي يحمدها الشعراء ويمجدون الوفاء بها فإن حديث الشاعر عنه يكون ذا صلة بالموضوع العام من أحد جانبيه وهو الجانب الذي يوافق مكانتها في محيط الصورة الشاملة للجوار والفخر به. وإذا كانت الحماية العامة والإيواء والأمن من الحق المعروف الشامل للجوار فإن للمرأة الجارة خصوصيات حددها الشعر تتعلق بوضعها كامرأة تحتاج من الحماية ما لايحتاجه الرجل.

وسنجمل المحاور التي برزت في الشعر الذي تعرض لمكانة الجارة وهي ثلاثة محاور أساسية دار حولها ولم يخرج عنها:

الأول: المحافظة على شرفها مادامت نازلة في جوار العربي الكريم.

الثاني: الستر لها وغض الطرف عنها وعدم التطلع إليها أو الطمع فيها.

---

(١١) يوسف القرطبي، *بهجة المجالس*، تحقيق محمد مرسي الخولي (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.)، مج١، ص٢٩٠.

الثالث: القيام بسداد الحاجة إن احتاجت حتى لاتجوع ولا تعرى ولا تصيبها مسغبة وهي بجواره.

هذه المحاور الثلاثة هي التي وجدنا الشعر يدور حولها وألح الشعراء الذين تعرضوا للحديث عن الجارة على أنها في جوارهم تبقى موفورة العرض مصونة الجانب وافرة الشرف، حصانًا لاتمسها يد لامس بعيدة عن كل ريبة، مما يوحي بأن الحماية لها تعدُّ حماية خاصة مضافة إلى الحماية العامة التي يقتضيها حق الجوار لها ولأهلها، وهذه الحماية الخاصة تبدأ بصون عفاف الجارة عن الجار نفسه وعن غيره فيأتي الحديث عنها مبعدًا الطمع فيها، رافعًا مكانها فوق الثرياء لأنها حلت في جوار رجل لاينال أحد حماه ولاتخول لأحد نفسه أن يخدش كرامة الجارة. وقد قبح حاتم الطائي أن يطمع الرجل ذو المروءة بجارته أو تحدثه نفسه بزيارتها تحت جنح الليل فقال منكرًا أن يحدث ذلك: (١٢)

إِذَا مَا بِتُّ أَخْتُلُ عِرْسَ جَارِي لِيُخْفِيَنِيْ الظَّلَامُ فَلَا خَفِيْتُ
أَأَفْضَحُ جَارَتِيْ وَأَخُوْنُ جَارِيْ مَعَاذَ اللَّهِ أَفْعَلُ مَا حَيِيْتُ

فقد حصر الشاعر ذلك بعلاقة ذاتية فردية هي الترفع عن الجارة والتسامي مع خصال المروءة فهو الذي يجعل لجارته هذا المكان الرفيع حيث لايطمع أحد بالعدوان الشائن عليها فيظهر الدفاع عنها والبطش بالمعتدين ثم يتحدث عن سلوك ذاتي الإرادة، فيستبعد أن يسوء نفسه بما لايحمد فعله ويلحُّ الشعر العربي على هذا المعنى في عدد من الأبيات منها: (١٣)

وَمَا أَنَا بِالمَاشِيْ إِلَى سِرِّ جَارَتِيْ طَرُوْقًا أُحَيِّيْهَا كَآخَرَ جَانِبِ

ومنه: (١٤)

وَلَانَطْرُقُ الجَارَاتِ مِنْ بَعْدِ هَجْعَةٍ مِنْ اللَّيْلِ إِلَّا بِالهَدِيَّةِ تُحْمَلُ

وأيضًا منه: (١٥)

---

(١٢) حاتم الطائي، *ديوان حاتم الطائي*، تحقيق عادل سليمان جمال (القاهرة: مطبعة المدني، د.ت.)، ص٢٢٣.

(١٣) الطائي، *ديوانه*، ص٢٠٤.

(١٤) الطائي، *ديوانه*، ص٢٣٢.

(١٥) الطائي، *ديوانه*، ص٢٦٣.

فَأَقْسَمْتُ لا أَمْشِيْ إلى سِرِّ جَارَتِيْ يَدَ الدَّهْرِ مَادَامَ الحَمَامُ يُغَرِّدُ

وكل هذه الأبيات منسوبة لحاتم الطائي يورد فيها معنًى جديدًا للمحافظة على كرامة الجوار وحرمة المستجير لا من عدو يعتدي ولا من غالب يفرض قوته عليه، ولكنَّه يستبعد من نفسه العدوان ويغلق ميل الطبع المركب في جبلة الإنسان. ثم يؤكد أن هذا الميل إن وجد عنده فليس إلى الجارة ولا يمس كرامة المستجير بل إنه يأخذ معناه الشامل ونظرته إلى مجمل الجوار ولوازم الحماية التي يتحلى بها الخلق الرفيع ويجعل المستحيل كله أن تحدثه نفسه بما يبعث الريبة والشك عند جاره، أو يمس احترام جارته، ولعل الإلحاح من حاتم على تأصيل خلق المروءة يعود إلى تمسكه بأخلاق ذاتية ومثاليات خاصة به إذ إنه في مجمل ما حفظ له من شعر يُبْرِزُ الجانب المشرق في السلوك الإنساني فيتحدث عن الكرم فيسهب، ويصف حسن الجوار فيثني عليه ويتكلم عن الجود فيطيل. ولا غرو أن تكون الجارة في شعره صورة يرسم عليها معاني المحافظة الكاملة ويجعل شعره معبرًا عن تصوره لما يجب أن يكون لها. وإذا نظرنا إلى المعنى نفسه عند شعراء آخرين غير حاتم وجدنا عقيل بن عُلَّفَة المري يوافق حاتمًا كل الموافقة على ضرورة الوفاء والترفع عن ما يسوء الجارة أو يسيء الجوار، ويسوق رأيه واضعًا نفسه وطبيعة سلوكه المترفعة عن الممارسات الخاطئة مُعَرِّضًا بمن لا يرقى سلوكه إلى مستوى أخلاق عقيل ومحافظته، فيقول:(١٦)

وَلَسْتُ بِسَائِلٍ جَارَاتِ بَيْتِي أَغُيَّابٌ رِجَالُكِ أَمْ شَهُودُ
وَلَا أَلْقِيْ لِذِي الوَدَعَاتِ سَوْطِيْ أَلَاعِبُهُ وَرَبَّتَهُ أُرِيدُ
وَلَسْتُ بِصَادِرٍ عَنْ بَيْتِ جَارِيْ صُدُوْرَ العَيْرِ غَمَّرَهُ الوُرُودُ

أما تميم بن أبي بن مقبل فيبعد صفة اللوم عن نفسه ويزعم أنه لايفعل ما يمس كرامة الجارة أو يسيء إليها ويظهر سلوكه الممتاز زاعمًا أنه لايمكن أن يحدث منه ما قد يحدث من بعض من لم تتأصل في نفسه فروض الكرامة، عندما يدنو من حواء الجارة في ظلام الليل يقارب الخطو ويخفي الشخص وينـدس انـدساس الرجل اللئيم فيضعف وازع الإرادة الحازمة عنده. ويدفعه ضعف نفسه فيطمع بجارته ويرتحل السكون وهدوء الحي يقارب الخَطْو

(١٦) أحمد بن محمد المرزوقي، شرح *ديوان الحماسة*، تحقيق أحمد أمين (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٧٠هـ/ ١٩٦٧م)، مج١، ص٤٠٠.

ويخفي الشخص خوف الناس، فيرسم الشاعر ذلك السلوك بصورة متقزمة دميمة فيقول: (١٧)

وَلاَ أَطْـرُقُ الجَـارَاتِ بِالـلَّيْلِ قَابِعًـا قُبُـوعَ الـقُـرُنْبَى أَخْـطَأَتْـهُ مَحَافِـرُهُ

وقد أكد الشعراء بأبيات كثيرة أنهم لا يأنسون إلى زيارة الجارة إذا كانت خالية والحي خلوف، وليس من شيمهم الحديث إليها في تلك الحال حتى لا يجر الحديث إلى ما يخشاه الكريم وذو المروءة، يقول هلال بن خثعم: (١٨)

وَإِنِّي لَعَـفٌّ عَنْ زِيَارَةِ جَارَتِي وَإِنِّي لَمَشْـنُـوءٌ إِلَيَّ اغْـتِـيَابُهَـا
إِذَا غَابَ عَنْهَـا بَعْـلُهَـا لَمْ أَكُـنْ لَهَا زَءُورًا وَلَمْ تَأْنَسْ إِلَيَّ كِلاَبُهَـا
وَلَمْ أَكُ طَلاَّبًـا أَحَـادِيثَ سِرِّهَـا وَلاَ عَالِمًـا مِنْ أَيِّ جِنْسٍ ثِيَابُهَـا

ويقول قيس بن الخطيم: إن عينه لا تلمع إلى غرة الجارة ولا يمتد طرفه نحوها على غفلة. وعندما تكون بعيدة فإن النظر لاينتقل إليها، ويزيد ذلك بسؤال استنكاري يبعده عن كل ما يقربه من شك يسيء إلى الجوار فيقول: (١٩)

وَهَـلْ يَحْذَرُ الجَـارُ الـقَـرِيْبُ فَجِيْعَتِي وَخَـوْنِي وَبَـعْضُ المُقْـرِفِـيْنَ خَؤُونُ
وَمَـا لَمَعَـتْ عَيْنِي لِغِـرَّةِ جَارَتِي وَلاَ وُدِّعَـتْ بِالـذَّمِ حِيْنَ تَبِـيْنُ

(١٧) أُبَيُّ بن مقبل، *ديوان ابن مقبل*، تحقيق عزة حسن (دمشق: مديرية إحياء التراث القديم، ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م)، ص١٥٤.

(١٨) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، *كتاب البخلاء*، ط٦، تحقيق طه الحاجري (بيروت: دار المعارف، د.ت.)، ص١٧٣؛ والأبيات منسوبة إلى بشار بن بشر المجاشعي في: القرطبي، *بهجة المجالس*، ص٢٩١؛ وانظر: عبدالله بن مسلم بن قتيبة، *عيون الأخبار* (بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت.)، مج٣، ص١٨٣؛ ومعها البيتان التاليان:

وإن قراب البطن يكفيك ملؤه ويكفيك سوءات الأمور اجتنابها
إذا سد باب عنك من دون حاجة فذرها لأخرى لَيِّنٌ لك بابها

وأميل إلى أن هذه القطعة هي لبشار بن بشر المجاشعي وليست لهلال بن خثعم كما روى الجاحظ في بخلائه.

(١٩) قيس بن الخطيم، *ديوان قيس بن الخطيم*، تحقيق ناصر الدين الأسد، ط١ (دمشق: دار صادر، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م)، ص١٦٥.

ويصف زهير بن أبي سُلمى نفسه بأنه يعَف عمَّا يؤذي شعور الجار فلا يديم النظر إلى جارته لا في سر ولا علانية فيقول: (٢٠)

وَجَـارِيْ لَيْسَ يَخْشَـى أَنْ أُرَنِّي   حَلِيْلَتَـهُ بِسِرٍّ أَوْ عَـلاَنِ

وعند طفيل الغنوي اقتناع آخر بهذه المثل الكريمة والأخلاق المحمودة يجسدها في أبيات على شاكلة قوله: (٢١)

وَلاَ أَقُـوْلُ لِجَارِ الـبَـيْتِ يَتْـبَـعُـنِيْ   نَفْسِيْ مَحَلُّكَ: إِنَّ الجَـوَّ مَحْلُوْلُ
وَلاَ أُخَـالِـفُ جَارِيْ فِيْ حَلِيْلَتِـهِ   وَلاَ ابْـنَ عَمِّـيَ غَالَـتْـنِيْ إذن غُوْلُ
وَلاَ أُحَـدِّدُ أَظْـفَـارِيْ أُقَـاتِـلُهُ   إِنَّ لِلِّطَامَ وَقَـوْلَ الـسُّـوءِ مَحْمُـوْلُ

وهو يؤكد المعنى الذي تواترت عليه أبيات الشعراء عن حرمة الجارة وقريبة الدار، ويشرك مع الجارة زوجة ابن العم مشيراً إلى التعفف عن حرمات هذين لمكانتهما معلناً رعاية حقهما وإن بعدا أو غابا وتهيأت أسباب الوصال من الطرف الآخر فالإباء من جانبه أقوى من ذاته وأعم والرعاية لهذه الحرمان لن يمس القناعة بها حتى الرضا من الطرف الآخر وغياب الرجل صاحب العلاقة.

ومهما كانت العوامل التي يتعرض لها من جانب المرأة أو حدوث الفرصة، فعنده قصد ثابت ومرام لايتغير يسعى به إلى الغاية التي جعلها سبب امتناعه حيث يرى رأيه عدد من الشعراء الذين يوافقونه ويؤيدون قناعته بشعر مثل شعره ومن هؤلاء كُثَيِّر عزة الذي يقول: (٢٢)

نِسَـاءُ الأَخِـلاَّءِ المُـصَـافِـيْنَ مَحْرَمٌ   عَلَيَّ وَجَـارَاتُ الـبُـيُوْتِ كَنَـائِـنُ

---

(٢٠) زهير بن أبي سُلمى، *ديوان زهير بن أبي سُلمى* (القاهرة: الدار القومية للطباعة، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م)، ص٢٥٦.

(٢١) الطفيل الغنوي، *ديوان الطفيل الغنوي*، تحقيق محمد عبدالقادر أحمد (بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٦٨م)، ص٨٥.

(٢٢) كثيِّر عزة، *ديوان كثير عزة*، تحقيق إحسان عباس (بيروت: دار الثقافة، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م)، ص٣٨٠.

ويأتي الأحوص الأنصاري بشيء من التفصيل ويعلل لماذا يترفع من امرأتين خاصة دون غيرهما. امرأة الصديق وجارة الجنب فيقول: (٢٣)

ثِنْتَانِ لَا أَدْنُوْ لِوَصْلِهِمَا عِرْسُ الخَلِيْلِ وَجَارَةُ الجَنْبِ
أَمَّا الخَلِيْلُ فَلَسْتُ فَاجِعَهُ وَالْجَارُ وَصَّانِيْ بِهِ رَبِّيْ

فالأحوص وكثيِّر يتنازعان معنى لطيف الدلالة على مروءة العربي ونظرته إلى حدود العلاقة بين الرجل والمرأة وعوامل التغير في نظرتهما هي أن كثيراً خلط نفسه بأصدقائه وجعل حرماتهم واحدة ونساءهم محارم له لايحل له منهن غفلة، وجارات بيته كنائن له مصونات لايريبهن منه ريبة ولاتحدثه نفسه بذلك، في حين نجد الأحوص يحدد المرأتين اللتين يعف عنهما، امرأة الصديق الذي قويت به أسباب العلاقة الشخصية، والجار الذي لجأ إليه. وله في كل منهما سبب يفسره، فهو لايريد فجيعة الصديق؛ أما الجار فحقه إسلامي ووصاية دينية لايحل له مخالفتها. وعندما ينتقل الحديث من النفس وما يعتقد الشاعر بذاته إلى الجانب الآخر من الناس، ويأخذ الشعر في ذكر محامد الأجواد والثناء على مكارم أخلاقهم فإن هذه الخصلة تأتي رصيدًا يدفع الشعراء الحديث عنه إلى الأفواه ويصورونه بأضخم آيات الحمد والثناء ويجعلون البعد عن مساس الجارة خلقًا يمدح به المادحون ومكرمة يكررها الواصفون، فيقول حاتم في وصف قوم استحقوا الثناء في رأيه والمدح: (٢٤)

وَجَارَتُهُمْ حَصَانٌ مَا تُزَنَّى وَطَاعِمَةُ الشِّتَاءِ فَمَا تَجُوْعُ

أما الخنساء فتصور أخاها بعد موته بأنه كامل المروءة وتخلع عليه صفات الرجال الكملة وتضفي على سلوكه خصال التقدير فتقول في وصفه: (٢٥)

وَلَا يَقُوْمُ إِلَى اِبْنِ العَمِّ يَشْتُمُهُ وَلَا يَدِبُّ إِلَى الجَارَاتِ تَخْوِيْدَا

وفي بيت آخر تعود إلى أخيها فتصف عميق إيمانه بقيمة العادات الاجتماعية وأهمية المحافظة عليها عنده فتقول: (٢٦)

---

(٢٣) الأحوص الأنصاري، *ديوان الأحوص*، تحقيق عادل سليمان جمال (القاهرة: الهيئة المصرية للتأليف، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م)، ص٨٣.

(٢٤) حاتم الطائي، *الديوان*، ص١٤٨.

(٢٥) تماضر الخنساء، *ديوان الخنساء* (بيروت: دار صادر، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)، ص٤٠.

(٢٦) الخنساء، *الديوان*، ص٤٩.

لَمْ تَرَهُ جَارَةٌ يَمْشِيْ بِسَاحَتِهَا لِرِيْبَةٍ حَيْنَ يُخْلِيْ بَيْتَهُ الجَارُ

أما جارة شبيب بن البرصاء فهي لاتكاد تقع عليها عين ولاتصلها مذمة وهي آمنة أمن الأروى المعصمة في قنة الجبل الأشم، وما ذلك الجبل والشمم إلا حصن الشاعر وقومه الذي يضعونه دون الجارات ويصدون به طمع الطامعين فيهن المتطلعين إليهن فيقول: (٢٧)

يَدُلُّ عَلَيْنَا الجَارَ آخِرُ قَبْلَهُ وَأَحْلاَمُنَا مَعْرُوْفَةٌ وَسَدَادُهَا

وَجَارَاتُنَا مَادُمْنَ فِيْنَا بِعِزَّةٍ كَأَرْوَى ثَبِيْرٍ لَايُحِلُّ اصْطِيَادُهَا

إن قداسة علاقة الجوار كانت في رأيه مثل مكانة الحرم الذي لايجرأ على انتهاكها إنسان ولايستطيع أن يفعل ذلك حتى لو أراد لأن لها واقعًا متميزًا ومكانة تبعدها عن طمع الطامعين، كما يمدح الحطيئة قومًا يحفظهم سر الجارة فيقول فيهم: (٢٨)

لَعَمْرُكَ مَا الْمَجَاوِرُ فِيْ كُلَيْبٍ بِمُقْصَى فِي الجِوَارِ وَلاَ مُضَاعِ

هُمُ صَنَعُوا لِجَارِهُمُ وَلَيْسَتْ يَدُ الخَرْقَاءِ مِثْلَ يَدِ الصَّنَاعِ

وَيَحْرُمُ سِرَّ جَارَتِهِمْ عَلَيْهِمْ وَيَأْكُلُ جَارُهُمْ أُنُفَ القِصَاعِ

وَجَارُهُمُ إِذَا مَا حَلَّ فِيْهِمْ عَلَى أَكْنَافِ رَابِيَّةٍ يَفَاعِ

ويأخذ المعنى نفسه الأعشى فيمدح هوذة بن علي الحنفي وقومه بهذا الخلق الكريم فيقول: (٢٩)

هُمُ الخَضَارِمُ إِنْ غَابُوْا وَإِنْ شَهِدُوْا وَلاَ يَرَوْنَ إِلَى جَارَاتِهِمْ خُنُعَا

قَوْمٌ بُيُوْتُهُمْ أَمْنٌ لِجَارِهِمُ يَوْمًا إِذَا ضَمَّتْ المَخُدُوْرَةُ القَزَعَا

الجارة المستورة

بعد الإعراب المباشر الصريح عما في نفس المرء نحو جارته وحرمتها التي يرعاها والقرابة التي يدين بها نأخذ في الموضوع جانبًا آخر، عندما يتحول الحديث المباشر إلى الكناية

---

(٢٧) محمد بن سلام الجمحي، *طبقات فحول الشعراء*، تحقيق محمود شاكر (القاهرة: مطبعة المدني، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م)، مج١، ص٧٢٧.

(٢٨) جرول الحطيئة، *ديوان الحطيئة*، تحقيق نعمان طه (القاهرة: مطبعة المدني، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م)، ص١٣٨.

(٢٩) الأعشى، *الديوان*، ص١٥٧.

عن الشيء ببعض لوازمه. والستر ستر البيت تكون وراءه الحرمات ومن هتك سترًا فقد قصد إلى اختراق حرمات الجار ولعل الشعر الذي نحن بصدد إيراده عن الجارة يأخذ الستر موضوعًا، ويجعل الشعراء له معنى عندما يحددون سلوكيات الناس الكريمة الفاضلة وتصير الكناية بالستر عما وراءه محورًا يدير الشاعر القصيدة حوله فيأخذ ستر الجارة حقه من الإشارة إليه والكناية عنه بمثاليات السلوك الطيِّب المحمود الراقي المتسامي إلى مكارم الأخلاق. ويأخذ الستر حقه أيضًا عندما يصف الشاعر ذلك المنحدر إلى مهابط الرذيلة ومشارع اللؤم وانحراف الإرادة السوية لدى الإنسان فيسير به هواه إلى منعطفات مظلمة ضيقة تقوده إلى النزول في سراديب الرغبة الممقوتة. فإذا أخذنا الجانب الأول وجدناه مشرقًا في لغة الشعر وضاء في عقلية الشعراء مشعًّا في وجدانهم حيًّا في أحاسيسهم وأحاسيس الناس حولهم فيمدح به الممدوحون ويتقرب به المتقربون عندما يصفون أخلاق الكرم وضروب الشهامة عند العربي الكريم، يقول الشاعر في ذلك مادحًا من هذه صفاته:(٣٠)

لَا يَهْتِكُ السِّتْرَ عَنْ أُنْثَى يُطَالِعُهَا وَلَا يُشَدُّ إِلَى جَارَاتِهِ النَّظَرُ

فهو عف في كل حال لاتمتد له نظرة مريبة ولا يحاول اختراق الحجب والاقتراب من الحوزة يغض الطرف ويقصر الخطو ولا سيما عن جارة المنزل وقريبة الدار. وهو وفيٌّ في الذمام كامل المروءة حتى تفارق الجارة وتبعد عنه حصانًا عفيفة لم تمس لها كرامة ولم يخدش لها حياء، ويأتي المعنى نفسه لدى الأبيرد الرياحي فيقول:(٣١)

وَإِنْ جَارَةٌ حَلَّتْ إِلَيْهِ وَفَى لَهَا فَبَانَتْ وَلَمْ يَهْتِكْ لِجَارَتِهِ سِتْرُ

ثم يأخذ الشعراء بالصعود العالي إلى قمم الشرف ومرتفعات المنازل يذكرون الأحوال والمتغيرات التي تحدث مع الزمن وقسوة الأيام واشتداد البأس فلا يتغير معدن الكرامة ولا يصاب لديهم صميم المروءة في دلالة واضحة على تأصل الخلق الذي يجعلونه للمعالي

---

(٣٠) محمد بن العباس اليزيدي، *كتاب الأمالي* (الرياض: عالم الكتب، د.ت.)، ص١٦.

(٣١) أبو علي القالي، *كتاب الأمالي* (بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت.)، ص٤.

ويفرضونه على أنفسهم من أجل أن تبقى كرامة النفوس ومكانتها. يقول مسكين الدارمي: (٣٢)

لَايَرْهَبُ الجِيْرَانُ غَدْرَتَنَا حَتَّى يوَارِيْ ذِكْرَنَا القَبْرُ
لَسْنَا كَأَقْوَامٍ إِذَا كَلَحَتْ إِحْدَى السِّنِيْنَ فَجَارُهُمْ تَمْرُ
مَوْلَاهُمُ لَحْمٌ عَلَى وَضَمٍ تَنْتَابُهُ العِقْبَانُ وَالنَّسْرُ
نَارِيْ وَنَارُ الْجَارِ وَاحِدَةٌ وَإِلَيْهِ قَبْلِيْ تَنْزِلُ القِدْرُ
مَا ضَرَّ جَارِيْ إِذْ أُجَاوِرُهُ أَلَّا يَكُوْنَ لِبَيْتِهِ سِتْرُ
أَعْمَى إِذَا مَا جَارَتِيْ خَرَجَتْ حَتَّى يُوَارِيْ جَارَتِيْ الخِدْرُ
وَيُصَمُّ عَمَّا كَانَ بَيْنَهُمَا سَمْعِيْ وَمَا بِيْ غَيْرُهُ وَقْرُ

وهذا النص يتعامل مع الحياة الواقعة ويوظف الإبداع لتسمو الإرادة وترتفع إلى درجات الكمال ثم يكثف معنى شموليًّا وإحساسًا عميقًا بوابل من صيب مبارك تمطر به سحائب أخلاق العرب ومكنون نفوسهم فيقوى فيه الغريب والضعيف ومن لايستطيع الدفاع عن نفسه أو حماية عرضه، ولأن ميل النفس إلى المرأة يقوى بضعفها وغربتها فقد أصبحت الجارة امتحانًا لما يدعي الرجل من أخلاق السمو والرفعة. وبدأ جانب الاهتمام بها يكبر والإحساس نحو حرمتها يتجذر أصله في النفوس حتى تبقى العلاقة معها ناصعة البياض مشرقة الديباجة لايدنس لها جانب ولايخفى منها خفاء، ليدعي كل جار أن هذا خلقه مع جارته ونزيلة حيه وأنه غضيض الطرف إن انكشف حجاب الستر أو برزت في العراء بلا واق ولامانع، عندئذ تكون أخلاقه هي الحاجب الواقي والمانع الذي لاتخترقه أسهم النظرات يقول الأعرج الطائي: (٣٣)

وَمَا أَنَا إِنْ قَامَتْ تَحَمَّلُ جَارَتِيْ بِمَا كَانَ مِنْ عَوْرَاتِهَا بِبَصِيْرِ

---

(٣٢) مسكين الدارمي، *ديوان مسكين الدارمي*، تحقيق عبدالله الجبوري وخليل إبراهيم العطية (بغداد: دار البصري، ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٠م)، ص٤٥.

(٣٣) أبو زيد الأنصاري، *كتاب النوادر في اللغة*، تحقيق محمد عبدالقادر أحمد (بيروت: دار الشروق، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)، ص٧٩.

ويقول عروة بن الورد إن الجارة في كنفه آمنة حتى عندما ينكشف عنها حجابها وتقلع الريح بيتها وتلوي به بعيدًا عنها فتظهر الجارة أمامه دون ستر عند ذلك يتشاغل عن النظر إليها ويتغافل عن التطلع نحوها حتى يقيم الستر عليها.(٣٤)

وَلَا يُسْتَضَامُ الدَّهْرَ جَارِيْ وَلَا أُرَى كَمَنْ بَاتَ تَسْرِيْ لِلصَّدِيْقِ عَقَارِبُهْ
وَإِنْ جَارَتِيْ أَلْوَتْ رِيَاحُ بِبَيْتِهَا تَغَافَلْتُ حَتَّى يَسْتُرَ البَيْتَ جَانِبُهْ

أما حاتم الطائي فيعود إليه الحديث مرة أخرى وهو يصور خلقًا آخر من أخلاق الكمال والسمو ويرتفع بعيدًا في سماء الحياة التي يعيشها الناس حوله حتى يطل من علٍ على أبعاد الأرض تحته فتصبح بين يديه ينظر أين يضع خطو قدمه حيث لاتقع على وحل الطين اللازب، فيقول:(٣٥)

وَمَا تَشْتَكِيني جَارَتِيْ غَيْرَ أَنَّنِيْ إِذَا غَابَ عَنْهَا بَعْلُهَا لَا أَزُوْرُهَا
سَيَبْلُغُهَا خَيْرِي وَيَرْجِعُ بَعْلُهَا إِلَيْهَا وَلَمْ تُقْصَرْ عَلَيَّ سُتُوْرُهَا

إن لستر الجارة عند الشعراء دلالة معنوية قوية تحددها التقاليد الاجتماعية وتدفع للمحافظة عليها خوف العار فيرسم الشعر لها صورة مشرقة حتى يبدو حرص الشاعر على اكتساب المحامد والظهور في مجتمعه بمظهر المروءة الكاملة. والجارة التي يصف التزامه بحقها صارت مجالاً للحديث الذي يمثل عند الشعراء أدبية الالتزام في جميع الأحوال ويجدد في ذاكرة الأجيال قيمة الأخلاق الفاضلة. ولاينسى حظه عندما يذكر غيره، فيؤكد وفاءه بما للجوار من واجب، ويعلن أهمية الالتزام الأدبي نحو مثاليات التقاليد في مجتمع الجزيرة.

ولم نجد شاعرًا ابتعد عن هذا الموضوع حتى الذين مدحوا غيرهم، كانوا في مدحهم يربطون بين الممارسات الشخصية للممدوح والقناعة الذاتية بالوفاء والالتزام، وكان حاتم الطائي مثالاً لظاهرة المعاناة ولو كلفه ذلك ذهاب ماله ونفسه. فيرسخ عمق الإيمان بمبدأ

(٣٤) عروة بن الورد، *ديوان عروة بن الورد*، شرح أكرم البستاني (بيروت: دار صادر، ١٩٥٣م)، ص١٦.

(٣٥) حاتم الطائي، *الديوان*، ص١٠٧.

الصبر الدائم في جميع الأحوال فلا يعرف الظروف القاهرة ولايقبل الخضوع للقوة ولايلتمس العذر للخلاص من لوازم الجوار وواجباته.

وإذا كانت صورة الوفاء وإكرام الجارة والعناية بحقها فضيلة يمدح الشاعر فيها قومه ويفخر بها على من حوله، فإن هجاء من يضعف عنده الوفاء بأخلاق الكرام يصير سبة وعارًا في نظر الشعر، ويجد فيه الشاعر سببًا للهجاء فيهاجم المقصرين والعاجزين عن الالتزام بالأعراف والتقاليد المتفق عليها. ويتخذ الشاعر الضعف وسيلة للهجوم على الآخرين عندما يثور بركان الغضب في نفسه على جماعة من الناس أو على فرد من القبيلة ويحاول هذا البركان أن يحرقه اجتماعيًّا ومعنويًّا ثم يذروه رمادًا تطير به الريح فلا يبقى له وجود ولايعترف له بفضل ولاتصبح عنده حصانة أمام عدوان الغضب. في هذا الحال يصير فتيل الغضب وبركان الزلازل هو سلوك المهجو الرديء نحو الجارة وعدم تقديره لعظيم حقها عندما حلت بجواره واحتمت بكنفه ولاذت بحصن شرفه الوضيع فيأتي الهجاء على هذا المعنى كما يقول جرير: (٣٦)

بَنُوْ نَخِبَاتٍ لَايَفُوْنَ بِذِمَّةٍ وَلَاجَارَةٌ فِيْهِمْ تُهَابُ سُتُورُهَا

إنه يعد التهاون عار الأبد والفضيحة التي لاتغتفر عندما يعير الرجل بجارته وتضعف نفسه عن مقاومة ميله أو انحراف سلوكه، حتى لو كان الهجاء كاذبًا أو مُدَّعًى فإنها تصبح مؤلمة مرفوضة ينظر إلى ما يقول بكل استهجان وتقزز لايقبله الشرف الكريم ولايوصم به غير اللئيم. وليكن بعد ذلك ما يكون في نظر الشاعر، إنما الغرض الذي يريده ويسعى إليه هو أن يجهز بسرعة على خصمه ويقضي على رمق الحياة المعنوية فيه قبل أن يرد له ضربة قاضية. وليس أسرع من القضاء على الخصم غير أن يجعل شرف الجارة، جارة الخصم في خطر منه قبل أن تجب فروض الوفاء لها من غيره. وهذا ما فعله عقيل بن علفة المري عندما أجهز على أعدائه بني الهجيم فلم يتردد من استعمال الضربة القاضية قبل أن يستعد الأعداء لرد الكيد، يقول عقيل: (٣٧)

---

(٣٦) جرير بن الخطفى، *ديوان جرير*، تحقيق نعمان طه (القاهرة: دار المعارف، د.ت.)، ص٢٠٦.

(٣٧) ابن سلام، *طبقات فحول الشعراء*، مج١، ص٧١٣.

إِذَا جَارَةٌ حَلَّتْ عَلَى الهُـجْـمِ لَمْ تَجِدْ كَرِيْمًا، وَلَمْ تَعْـدَمْ لَئِـيْمًا يَزُوْرُهَـا
أَلَمْ تَرَ بَدْرًا لَا تُمَانِيْ دِمَـاءَهُـمْ دِمَـاءٌ، وَلَمْ يَعْـقِـدْ لِجَارٍ مُجِيْرُهَـا

فالشاعر يضخم المأساة الَتي يتحدث عنها هنا في هذه الأبيات عندما تجد الجارة غير الكريم في حي اعتمدت حفاظه وألقت بعبء الدفاع عنها عليه فلا تجد كريمًا يحميها ويحفظ الحق المضاع لها في غربتها وبعدها عن حاميها. ولكنها في رأي الهجَّاءِ تجد العكس، تجد اللئيم الذي يبحث عن ضعفها وغفلتها ويحاول التردد إلى منزلها ويكرر الزيارة الممقوتة لها حتى يحقق مطامع نفسه اللئيمة، ويلطخ الشرف الأشم، إنها صورة يبعثها خيال الغضب، فيجسم قبح الممارسة السلوكية الخاطئة والأخلاق المنحرفة وإن لم يحدث شيء من ذلك إلا في خيال الشاعر الذي أثار الغضب حفيظته فهجا، ولايعني أن ذلك يحدث في واقع الحياة، وحدوثه أو عدم حدوثه لايغير شؤم النظرة إليه ولايعني الباحث شيئًا من ذلك. إنما الذي يعنيه الدلالة الاجتماعية والرصد لثورة الغضب ومحاولة قتل الروح المعنوية لدى المهجو، فلا يجد الهجاء غير هذا القار الأسود الذي يرفع درجة حرارته إلى حدِّ الغليان ثم يصبه على دماغ المهجو ليذيبه تحت ضرباته الموجعة وأخلاقه الثائرة غضبًا ثم يسحقه اجتماعيًّا. والهجاء يبعث الشاعر إلى البحث عن صور مرفوضة اجتماعيًّا فيقدح غضبه زناد الشرر فيها ويشعل فتيل العار فيدمغ أعداءه بسوء الأخلاق ويصفهم بقبيح المنظر وكأنه شاهد على ما يقوم به المهجو من سلوك الانحراف يقول أوس بن حجر هاجيًا بني سعد بن مالك: (٣٨)

طُلْسُ الـعِـشَـاءِ إِذَا مَا جَنَّ لَيْلُهُـمْ بِالمُـنْـدِيَاتِ إِلَى جَارَاتِهِـمْ دُلُـفُ
وَالـفَـارِسِـيَّةُ فِيْهِـمْ غَيْرُ مُنْـكَـرَةٍ فَكُـلُّهُـمْ لِأَبِـيْهِ ضَيْزَنٌ سَلِفُ

وكذلك يفعل أبو جلدة بن حبيب فيقول فيمن استحق هجاءه: (٣٩)

إِذَا اعْـتَـكَـرَتْ ظَلْمَاءُ لَيْلٍ وَنَـوَّمَـتْ عُيُونُ رِجَـالٍ وَاسْـتَـلَذُّوا المَضَـاجِعَـا
سَمَا نَحْـوَ جَارِ الـبَيْتِ يَسْتَـامُ عِرْسَـهُ يَزِيْدُ دَبِـيْبًـا لِلمُـعَـانَـاةِ قَابِـعًـا
وَإِنْ أَمْـكَـنَـتْـهُ جَارَةُ الـبَـيْتِ أَوْ رَنَتْ إِلَـيْهِ أَتَـاهَـا بَعْـدَ ذَلِـكَ طَائِـعًـا

كذلك تكون صورة المكث والاستئناس في بيت الجارة وفي حوائها من أقبح السلوك ولايفعل

---

(٣٨) أوس بن حجـر، *ديوان أوس*، تحقيق محمـد يوسف نجم (بـيروت: دار صادر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، ص٧٥.

(٣٩) الأصفهاني، *كتاب الأغاني*، مج١١، ص٣٠٧.

ذلك في رأي الشاعر غير من لايرعى للجوار حرمة ولاينظر إلى مكارم الأخلاق، ويبقى إن فعل ذلك هدفًا لألسنة الشعراء حتى يسلبوا منه كرامته التي لم يرعها وخلقه الذي لم يصنه ولم يجد جرير عندما أراد هجاء الفرزدق إلا أنه ينادم في منزل جارته ويشارك غيره الحديث إليها والتبسط عندها، والأولى به لو كان ذا غيرة أن يغار على جارته من نفسه ثم يبعد عنها من يطمع بشيء لاترضاه كرامة الجار الكريم، فيقول: (٤٠)

حُمَيْدَةُ كَانَتْ لِلفَرَزْدِقِ جَارَةً يُنَادِمُ حَوْطًا عَنْدَهَا وَالْمُقَطَّعَا

إن هذه المنادمة عار الأبد وخزي الدنيا وفضيحة لايغفرها العدو لخصمه، فيرفع صوته معلنًا الانهيار التام في أخلاق الخصم الذي رضي أن يرى جارته يحيط بها الرجال ويتنادم في منزلها العدد منهم وفيهم الجار الذي تجب عليه حمايتها وصون عفتها.

الجارة الطاعمة

لاشك أن الشح في الجزيرة العربية وندرة مصادر الرزق وما يتعرض له المجتمع العربي فيها من جوع وعوز وفاقة في كثير من الأوقات يجعل الإطعام الذي يمسك الرمق في بعض الأحيان معجزة يتحدث الناس عنها ويفخر بها الفاخرون، وإذا حدث أن أجدبت الجزيرة العربية وأبطأ الغيث وهلك الأخضر واليابس، أصبحت لقمة الطعام تعادل قناطر الذهب،(٤١) وأكثر الناس تعرضًا لمس الجوع هم العامة. والطارئون على الحي، فعليهم يقع النصيب الأوفر من قسوة الحياة، وأول من يتعرض للعوز هي الجارة التي بعدت عن حيها وأقربائها وأهل الرأفة بها، لأن الغريب في الحي يواري فقره ولايود أن يعلم أحد عن ضعفه وخصاصته حتى لايكون ذلك سببًا بنزوله من كبرياء الترفع، وصورة التجمل، والمرأة الجارة أحوج إلى ذلك التجمل وأولى به، لهذا فإن الجار الكريم يشعر بالإثم إن جاعت بجواره وأهله شباع يقول عدي بن زيد: (٤٢)

(٤٠) جرير بن الخطفى، *الديوان*، ص٢٦٤.

(٤١) ذكر الأستاذ حسين زيدان في ذكرياته عن العهود الثلاثة أن بيتين في المدينة المنورة كل منهما مكون من ثلاثة أدوار بيع كل منهما قبل خمسين عامًا بكيس أرز. انظر: محمد حسين زيدان، *ذكريات العهود الثلاثة* (الرياض: المؤلف، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، ص١٠٨.

(٤٢) عدي بن زيد، *ديوان عدي بن زيد*، تحقيق محمد جبار المعيبد (بغداد: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٥م)، ص١٤٦.

وَبَسْلٌ أَنْ أَرَى جَارَاتِ بَيْتِيْ يُجُعْنَ وَأَنْ أَرَى أَهْلِيْ شِبَاعَا

فالمشاركة التامة يوجبها الجوار على الكريم وتفرضها مروءته ولاسيما عندما يعرف عوز الجارة وحاجتها التي لن تكون ظاهرة معروفة، لاسيما في اشتداد الأزمات، وقد أحس الشعراء الذين تعرضوا للحديث عن الجوار الشامل بهذه الخاصية وتحدثوا عن موقفهم في حال البؤس وما ينعمون به على الجارة حتى تغنى فلا ترى بها خصاصة يقول حاتم الطائي:(٤٣)

وَإِنِّي لأَخْزَى أَنْ تُرَى بِيَ بِطْنَةٌ وَجَارَاتُ بَيْتِيْ طَاوِيَاتٌ وَنُحَّفُ
وَإِنِّي لأُغْشِيْ أَبْعَدَ الحَيِّ جَفْنَتِيْ إِذَا حَرَّكَ الأَطْنَابَ نَكْبَاءُ حَرْجَفُ
وَأَجْعَلُ مَالِيْ دُوْنَ عِرْضِيْ، وَإِنَّنِيْ كَذَلِكُمُ مِمَّا أُفِيْدُ وَأُتْلِفُ

ويقول في حقِّ الجارة وعوز الحياة التي تتعرض لها مأساة الفقر الملازم:(٤٤)

أُشَاوِرُ نَفْسَ الجُوْدِ حَتَّى تُطِيْعَنِيْ وَأَتْرُكُ نَفْسَ البُخْلِ مَا أَسْتَشِيْرُهَا
وَلَيْسَ عَلَى نَارِيْ حِجَابٌ يُكِنُّهَا لِمُسْتَوْبِصٍ لَيْلاً، وَلَكِنْ أُنِيْرُهَا
فَلاَ وَأَبِيْكِ مَا يَظَلُّ ابْنُ جَارَتِيْ يَطُوْفُ حَوَالَيْ قِدْرِنَا مَا يَطُوْرُهَا

لقد جعل ابن الجارة أحد أهل البيت يشعر العربي نحوه بشعور الأب الحنون فهو يأكل معه لايمنع عنه القدر ولايغلق عنه المنزل، ولاتكتمل مروءة الكريم حتى تكون له هذه الصفة.

والجارة هي الأخرى يجب أن تحظى ببره وعطفه فيصل إليها خيره دون شره وطعامه دون كلامه. وهذا هو ما يتفق مع ما أخذ حاتم الطائي نفسه به من الحديث عن الكرم وتفصيل الأخبار عن ضروب الجود وشرحه في شعره لميل طبعه إلى الكرم والبذل فينال الضيف من شعره نصيب وينال الجار من شعره نصيب ويجعل للجارة نصيبًا يتحدث عن أخلاقه وما أخذ نفسه به من ضروب الإكرام. ويأخذ جرير المقابلة في معنى لطيف آخر ويقارن بين طلب الفضل والتطلع إليه وإدراكه وإن بعد، وفي مقابل ذلك قصر الخطو وكف وسائل الاتصال عن الجارة ولو كانت ملاصقة قريبة ثم يستثني ما لابد من استثنائه في حقها عندما تحتاج الطعام ويمسها الجوع فيأتي شعره شاهدًا على السلوك الكريم نحو خلقه وحفاظه على ذمام الجارة:(٤٥)

---

(٤٣) حاتم الطائي، *الديوان*، ص٢٢٣.
(٤٤) حاتم الطائي، *الديوان*، ص٤٧.
(٤٥) جرير بن الخطفى، *الديوان*، ص٢٤٠.

قَدْ أَطْلُبُ الحَـاجَـةَ القُصْـوَى فَأُدْرِكُهَـا وَلَـسْـتُ لِلجَـارَةِ الـدَّنُـيَا بِزَوَّارِ
إِلاَّ بِغِـرٍ مِنْ الـشِّـيْزَى مُكَـلَّلَةٍ يُجْرِيْ السَّـدِيْفُ عَلَيهَـا المِـرْبِـعُ الوَارِيْ

ويجمع لبيد لجارة ممدوحة ما تطمع فيه كل امرأة، فلها منه ألاَّ تجوع وهي بجانبه وألاَّ تنالها مذمة وألاَّ يساء معها حديث ولا يغتابها أحد في غيبتها أو حضورها: (٤٦)

وَجَـارَتُـهُ إِذَا حَلَّتْ إِلَـيْهِ لَهَا نَفَـلٌ وَحَظٌّ فِيْ السَّـنَـامِ
فَإِنْ تَقْـعُـدْ فَمُـكْـرَمَـةٌ حَصَـانٌ وَإِنْ تَظْعَـنْ فَمُـحْـسَـنَـةُ الـكَـلاَمِ

كما ينصح ويحث على إكرام المرأة الجارة ويدعو له ويبشر به ويجعل ذلك درسًا تعليميًّا يلقنه من يسدي له النصح حتى تكتمل صورة المروءة عنده فيقول: (٤٧)

وَعَـفِّـفْ عَنْ الجَـارَاتِ وَامْـنَـحُـهُـنَّ مَيْسَرَكَ الـسَّـمِـيْنَـا

ويفخر طرفة بن العبد بنفسه وقومه فيجعل مناط فخره إكرام الجار والجارة وحمايتهما فيقول: (٤٨)

لَنَـا هَضْبَـةٌ لاَ يَدْخُـلُ الـذُّلُّ وَسْـطَهَـا وَيَأْوِيْ إِلَـيْهَـا الْمُـسْـتَـجِـيْرُ فَيُعْـصَـمَا
تَرَى جَارَنَـا فِيْنَـا بِخَـيْرٍ وَعِرْسَهُ، وَجَـارَتُنَـا بَسْـلاً عَلَى النَّـاسِ مَحْرَمَـا

ويتحدى الأعشى أعداءه بأسلوب استنكاري تهكمي فيقول: (٤٩)

أَجَـارَتُـكُـمْ بَسْـلٌ عَلَيْنَـا مُحَرَّمٌ وَجَـارَتُـنَـا حِلٌّ لَكُـمْ وَحَـلِيْلُهَـا

كما يأتي المادحون لتوظيف معنى احترام الجارة وإشباعها في مدائحهم للأجواد وأهل الفضل يتوسلون إليهم بتحريك نسيم ريح المروءة والكرم حتى ينفح الممدوحون الشاعر بما يتطلع إليه من إكرام يقول مسعود بن خرشة التميمي في مدح والي اليمامة من بني عقيل: (٥٠)

---

(٤٦) لبيد بن ربيعة العامري، *ديوان لبيد بن ربيعة العامري*، تحقيق إحسان عباس (الكويت: دار التراث، ١٩٦٢م)، ص٢٠٤.

(٤٧) العامري، *ديوانه*، ص٣٢٤.

(٤٨) طرفة بن العبد، *ديوان طرفة*، تحقيق درية الخطيب (دمشق: مجمع اللغة العربية، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م)، ص١٩٤.

(٤٩) الأعشى، *الديوان*، ص٢٢٥.

(٥٠) الأصفهاني، *كتاب الأغاني*، مج٢١، ص٢٧٤.

حُصُـوْنُ بَنِيْ عُقَـيْلٍ كُلُّ عَضْـبٍ إِذَا فَزِعُـوْا وَسَـابِـغَـةُ الـدِّلَاصِ
وَمَـا الْجَـارَاتُ عِنْـدَ الْمَحْـلِ فِيْهُـمْ وَلَـوْ كَثُـرَ الـدَّوَارِجُ بِالْخِـمَاصِ

فقد جعل الشاعر جارات بني عقيل لايحتجن إلى حماية وإنما إلى الشبع والإطعام وقد تجاوز الشاعر المدح بحمايتهن إلى المدح بإطعامهن ورعايتهن في أيام المسغبة والجوع ولاشك أن الحماية من مسلمات القضية، وحقوق الجار، فهو لايحتاج إلى ذكرها وتأكيدها ولكنه يذكر الجانب الآخر والواجب التطوعي وهو الإطعام في وقت الشدة والفقر واشتداد الفاقة والعوز الذي تعانيه المرأة المضاعة في الظرف القاسي للحياة.

ولا يقف مدح الجار عند ملء البطن من الطعام بل يصل إلى محاولة الإنعام بفضل ما عنده وترفيه الجارة بما لا يتوافر في أزمات القوت ففي مواسم الجفاف ونضوب المصدر الأساسي للطعام يكون القوت من اللحم هو آخر موجود عند عرب الجزيرة. فالإبل هي المال ولحمها هو الطعام الذي يلجأ إليه المعسرون في الأزمات وشح القوت، فلا يصبرون عليه كثيرًا إلا أن يقطعوه بنوع آخر من القوت الذي لايتوافر إلا عند القليلين منهم، وقد فطن الشعراء إلى الحال التي تكون عليها الجارة عندما لاتجد طعامًا غير اللحم وقد يكون لحم جزور هزيل فتحتاج الجارة إلى البر بها والتلطف الذي لايغفل عنه الجار الكريم وقد مدح الحطيئة قومًا يبرون بجاراتهم فقال: (٥١)

وَمَـا تَتَّـامُ جَارَةُ آلِ لُأيٍ وَلَـكِـنْ يَضْـمَـنُـوْنَ لَهَا قِرَاهَـا
كِرَامٌ يَفْـضُـلُوْنَ قُرُوْمَ سَعْـدٍ أُوْلِيْ أَحْـسَـابِهَـا وَأُوْلِيْ نُهَاهَـا

التتام هو الاستمرار على أكل اللحم قوتًا لايجد الآكل غيره طعامًا، فتشتد حاجته لما يقطع به اللحم من أصناف الطعام الأخرى. والحطيئة يصف ضربًا من التلطف في حقوق الجارة والحرص على ألا تمسها مسغبة ولاحرمان في جوار الكريم الذي يرعاها ويبحث عن خصاصتها وفقرها في وقت لا يتوافر فيه خير كثير. أما هدبة بن الخشرم العذري فيجعل جارة العربي الكريم تملك ماله كله وهو لها متى قل الضرع وهزلت الإبل فلا لبن ولا طعام،

(٥١) الحطيئة، *الديوان*، ص٩٧.

وهبت ريح الشتاء باردة تجيع البطون الخاوية وتضاعف معاناة الفقير ولاسيما الجارة التي لاتجرؤ على التصريح بحاجتها فيكون الجار هنا واقفًا يصد العوز عنها كما يصد الأعداء، وكما يدفع الأبطال عن الحوزة فيقول: (٥٢)

لِجَارَتِهِ الدُّنْيَا، وَلِلْجَانِبِ العِدَىٰ إِذَا الشَّوْلُ رَاحَتْ وَهْيَ حُدْبٌ شَوَاسِفُ
وَبَادَرَهَا قَصْرَ العَشِيَّةِ قَرْمَهَا ذُرَىٰ البَيْتِ يَخْشَاهُ مِنْ القَسْرِ آزِفُ
يَبِيْتُ عَنْ الجِيْرَانِ مَعْزِبَ جَهْلِهِ مُرِيْحَ حَوَاشِيْ الحُلْمِ لِلْخَيْرِ وَاصِفُ

الجارة الجائعة

ولابد من إجراء المقابلة، مقابلة خلق الكريم المعطاء البار بجارته بخلق الشحيح الذي يغلب عليه إثرة نفسه على ما سواها، فيشبع ويغط بنوم السعادة بينما جاراته يعصب في أحشائهن ألم الجوع، فلا يهتم ولايشعر بالحاجة ولايساعد في إطعام ولا إكرام فهو منصرف إلى نفسه عامل لهواه لاتأخذه المروءة في الدرب الشاق الذي يسلكه غيره من كرام الناس. هذا الخلق الذي يوجد في بعض السلوك الإنساني يضعه الشعر بزاوية مغلقة ثم يكشف عن دمامته وقبحه للناس حتى يظهر الواقع الذي يحاول البخيل إخفاءه، والظهور أمام الملأ بأخلاق الكرام، لكن يأبى الشاعر المداهنة مع هذا الصنف من الناس ويرفض الصلح مع أخلاقهم، ويجعل من لسانه وشعره محكًا يكشف ما تخفيه الطباع في هؤلاء القوم الذين نسوا واجبات الجوار وحقوق الرعاية. إذا كلحت السنون وعصبت الحياة بقسوتها، وقل العطاء والخير عند الكثيرين من الناس، ولم يبق غير تميز الجبلة والطبع الذي لايتغير ولايصدأ مع عوامل التعرية في حياة المجتمع الفقير البائس، وكل مجتمع الجزيرة في ذلك الوقت فقير بائس. ولهذا فإن التقريع بالبخل يقع حادًا على الرؤوس المطأطئة تحت شح النفس والخوف من تقلب الأحوال وانصراف الدهر يقول الأعشى في قوم هذه حالهم: (٥٣)

تَبِيْتُوْنَ فِي الْمَشْتَىٰ مِلاَءً بُطُوْنُكُمْ وَجَارَاتُكُمْ غَرْثَىٰ يَبِتْنَ خَمَائِصَا

حالان مختلفان في رأي الشاعر، حال الجار الذي ينعم بامتلاء البطن واندحاق السرة يشبع

(٥٢) هدبة بن الخشرم، شعر هدبة بن الخشرم، تحقيق يحيى الجبوري (بغداد: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٧٦م)، ص١٢٣.

(٥٣) الأصفهاني، *كتاب الأغاني*، مج٩، ص١١٧.

ثم ينام قرير العين وإلى جنبه وفي كسر بيته امرأة غريبة جائعة يمخض الجوع أمعاءها، فلا تجد عونًا ولايسمع لها نداء، فيلقي عار البخل على هؤلاء البخلاء الذين لم ينهضوا بواجبات الجوار ولم يرعوا حقوقه المشروعة، وقد صبَّ عليهم خزي الزمن وعار الأبد عندما لم ينهضوا بجاراتهم وحقوقها وأقل الحقوق في رأي الشاعر أن تتم المساواة أو تنال الجارة كفاف العيش مع جيران تعيش بجوارهم وهم يتمتعون بالشبع والري فلا يصل خيرهم إليها، وينتقل الشعر باحثًا عن صورة أخرى من صور الشح التي يهاجمها النبيل ويرفضها معناها الكريم ويعاقب عليها الشعر فيجد ملمحًا آخر يقوله فيه: (٥٤)

هَل غَيْرُ عَدْوِكُمُ عَلَى جَارَاتِكُمْ لِبُطُوْنِكُمْ مَلَثَ الظَّلَامِ دَوَاعِيْ
فَإِذَا هُمُ طَعِمُوا فَأَلأمُ طَاعِمٍ وَإِذَا هُمُ جَاعُوْا فَشَرُّ جِيَاعِ

فقد جعل السبب الذي وجهه إلى هؤلاء القوم عارًا إذ إنهم لايجدون غير الجارة يعتدون عليها تحت سديف الليل فلا تحترم حرماتها ولايرتفع سوء النية عنها ولا يبعد مدار القصد منها. وقد يصل بهم الأمر إلى حد النزق في رأيه فإن جاعوا فشر الجياع وإن شبعوا فشر شبع في بطونهم يدفعهم إلى كل رذيلة ويبعد بهم عن كل فضيلة ويأخذ بهم إلى ما لا يحمد من القول والعمل.

ولا شك أن المعنى الذي دار حوله الشعر هنا نموذج قليل ومثال للتدليل على ما يريد العربي أن تكون عليه أخلاقه. وهو شاهد على قيمة مكارم الأخلاق التي يؤمن بها أشد الإيمان ولايتنازل عن شيء منها فيما يواجه من تغيرات الحياة وصروف الدهر، لذلك كان في شعره مهاجمًا عنيفًا لكل ضعف يطرأ على سلوك المرء نحو اهتزاز العقيدة الراسخة بحق الجارة وحرمتها ووجوب الوفاء لها والبر بها كل البر حتى لو جاع هو ومن حوله فإن ذلك لايكون عذرًا مقبولاً يخفف عنه واجب الاهتمام والرعاية بها.

---

(٥٤) أبو زيد الأنصاري، *كتاب النوادر*، ص٤٣٤.

The Female Neighbor in the Ancient Poetry

Marzouk S. Tembak
Associate Professor, Department of Arabic, College of Arts,
King Saud University, Riyadh, Saudi Arabia

Abstract. This paper deals with Arabic poetry which concentrates on the right of female neighbors and describes how Arab poets were so proud of themselves when they managed to protect their female neighbor. Poets revealed in their poems the value of this custom and its social role among the Arabs.

This study draws attention to the development of this tradition and its causes; therefore, related verses have been analysed.